البناء.. والتنبيه المبكر.. سورة الماعون وأختاها

« ٥ »

في واحد من مؤشرات الحرص في المنهج الإسلامي في البناء، على تجنيب البنية الاجتماعية ـ بل والاقتصادية ـ عوامل الضعف والتخلخل: قدمت لنا السورة التي ذكر فيها الماعون، وآيتان من سورة الفجر في العهد المكي قبل أن يكون قياد المجتمع لدعوة الإسلام، كما حصل ـ بحمد الله ـ في العهد المدني.. قدمت لنا الكلمات الهاديات في السورتين ما يكشف عن مدى الارتباط بين التكذيب بيوم الدين، يوم المعاد والجزاء والحساب، وبين الانحراف المخزي في السلوك الاجتماعي السليم، وما يكشف عن الأثر السيء للانفصام بين العبادة والسلوك؛ وكان لذلك صورتان:

أولاهما ـ صورة ذلك المكذب بيوم الجزاء؛ فهو يمثل عنصر الخيبة، والتسبب بتعطيل عدد من الطاقات والفاعليات في نفسه وفي المجتمع؛ لما أنه فاقد الرحمة، خشن التعامل مع الضعفاء، عديم التعاون مع الآخرين، ذلك التعاون الذي يعود عليه وعليهم بالنفع وإحكام البنية في شتى وجوهها وصورها.

إنه يدور في فلك الأنانية ناسياً أن الأرزاق بيد الله، وأن المال مال الله، وأن الإنسان الضعيف أو المعوز له حق طبيعي في مال المعافى من العوز والضعف.

من هنا كان من العدل الإلهي المطلق إنزال العقوبة الصارمة يوم القيامة، وهي عقوبة تشعر بأن الجزاء من جنس العمل، ذلكم ما جاء في سورة الحاقة في شأن من أحاطت به خطيئة وأوتي كتابه بشماله من قول الله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ

﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧].

ومن بديع النظم القرآني أن كلمة «إنه» أشعرت بالتعليل لما قضي عليه من العقاب، وهو تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ؛ كأنه قيل: ما له يعذب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بذلك.

وتستوقفك البلاغة القرآنية الفذّة حين ترى أن في قوله تعالى: ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ دليلين قويين على عظم الجرم في حرمان المسكين: أحدهما ـ عطفه على الكفر وجعله قريناً له ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ الثاني ـ ذكر الحض دون الفعل؛ ليُعلم أن ترك الحض بهذه المنزلة ـ كما يقول صاحب الكشاف ـ فكيف بتارك الفعل؟.

أما الصورة الثانية: فهي صورة أولئك الذين هم عن صلاتهم ساهون؛ فالويل لهم: إنهم مراؤون في عبادتهم وأعمالهم، أعداء لأنفسهم ظالمون لها ـ في الحقيقة ـ وللناس، إنهم لا يبضُّون بقطرة خير، حتى لو كانت إعارة الماعون، وهم أشبه بالطفيليات في جسم المجتمع، تمتص خيراته، وتعوق نماءه، وتعرِّض بنيته لمخاطر الانقضاض، وترى فيهم أنموذج التخالف بين العبادة والسلوك، الأمر الذي يذكر بقول الشاعر:

سارت مشرِّقة وسرت مغرِّباً شتان بين مشرِّق ومغرِّب

ومعلوم أن الحفاظ على المجتمع من الثغرات التي يمكن أن تدبَّ إليه لسبب أو لآخر، وضمانُ نجاح العملية التنموية فيه: لا بد لهما من الانبعاث الذاتي إلى الخير في كل الميادين والأنشطة. كما لا بد من الشعور بأن الإنسان الفرد ليس وحده في المجتمع الذي يتفيأ ظلاله، ولكنه لبنة في لبنات الجماعة التي يشركها بوجوده فيه.

وكل أولئك مطلوب لتحقيق الإفادة من الطاقات والفاعليات على اختلاف التخصصات والاتجاهات، وإلا كان ذلك عبئاً على المجتمع بدل أن يكون قوة دفع، وتطوير إلى ما هو الأفضل والأقوم مادةً ومعنًى.

أما هؤلاء الذين ذكرتهم الآيات في سور الماعون والفجر والحاقة: فهم أنانيون يطوِّفون حول ذواتهم ويطوِّفون، حتى كأن الحسَّ الإنسان معطَّل في أعماقهم.

وليس بالأمر الهيِّن أن ينزل الله في هذا الصنف وأمثاله من الناس ــ وما تزال الدعوة تخطو خطواتها الأولى وهي مغلوبة على أمرها ــ قرآناً يتلى إلى يوم الدين، وبأساليب متنوعة.

على أن هذا لا بد أن يذكِّر بما يزيد الأمر وضوحاً على ساحة الاهتمام الذي ينبىء عنه التنزل القرآن في هذه القضية؛ إذ بعد قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ فكأن هذه من تلك!! وسبحان منزل هذا الكتاب العليم بخبايا نفوس عباده، القادر على أن يكون الخطاب في هدايتهم على أفضل مستوى من مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

مرة أخرى: إن على المسلمين ــ وعلى شفاه الكثيرين منهم في مشارق الأرض ومغاربها إعلان الولاء لكتاب الله وما تخط معالمه وبيانها من السنة من سبل الهداية ــ أن يدركوا بعمقٍ مدى دلالة هذا المؤشر الذي ندندن حوله في العهد المكي، وما يعنيه من أن هداية القرآن: لم تفرط ــ من أول الطريق ــ في شيء من أمر البناء الذاتي الذي يراد في ضوء دعوة الإسلام للفرد والمجتمع والأمة، وأن عنوان وعي الأمة وصدق ولائها للدين، وصحة انتماء أبنائها إلى شريعة سيد المرسلين: أن تكون ــ تصوراً وعملاً ــ عند الذي تشرق به هداية الفرقان الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا بد أن تخرج القضية بمنهجية عن ساحة الموعظة المجردة، إلى ساحة يكون فيها أخذ هذا الكتاب بقوةٍ: في المقدمة من سلَّم الاهتمامات والأولويات؛ بحيث يتاح ـ منهجياً وعملياً ـ لكلمة الله أن تصوغ حياة الأمة، وتقيم المجتمع على أرسخ الجذور؛ الأمر الذي يضمن ـ بعون الله وتوفيقه ـ سلامته من اختراق عوامل التخلخل والضعف، وقدرتَه على العطاء سليماً معافىً من بواعث الميوعة والانحلال التي أصابت تلك المجتمعات التي أسقطت من حسابها سلطان الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فشقيت وأشقت، وأحلَّ أصحاب النفوذ فيها قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار.

إنها مسؤولية كل مسلم يملك الأهلية، وبخاصة أولئك القادرين على إحداث النقلة من حيز الموعظة ـ مع أهمية هذا الحيِّز ـ إلى ميدان الصياغة العملية التطبيقية، وترجمة المبادىء إلى حركة فاعلة يبتغى بها وجه الله، وبناءٍ يراد له أن يكون بناءٍ خير ورشد يُسعد أهله في الدنيا ويوم الدين.